محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني

العوامل الجغرافية والاقتصادية في النزاع بينهما

— ٣ —

﴿ الخمور والتبغ ﴾ تحريم احتساء الخمر وسائر المشروبات الروحية في مصر الاسلامية كان سبباً في ان كثيرين من اهلها باتوا في بعض الاحيان لا يعرفون الاعتدال في تدخين التبغ. ومع ان الجدل في مصر على فائدة التبغ كان عنيفاً في خلال القرن السابع عشر فانهُ ما جاءت اوائل القرن التاسع عشر حتى اصبح تدخينهُ عامًّا الى حد كبير وقد انبأنا « كارن » الذي مر بمصر حوالي سنة ١٨٣٥ بانهُ كان شائعاً في القاهرة حتى بين السيدات . وكان اهل المدن المصرية في تلك الايام يفضلون التبغ السوري على التبغ البلدي لسبب لم يقف عليهِ كاتب هذه المقالة فكانت البلاد تستورد منهُ مقادير كبيرة في كل سنةٍ فاستوردت في سنة ١٧٩٩ من اللاذقية وحدها ٤٠٠٠ بالة زنة كل منها ٤٠٠ رطل واصدرت اليها صور في السنة نفسها من ٤٠٠ بالة الى ٥٠٠ وقد أيّد هذه الحقيقة بوجه الاجمال ما كتبهُ سنت جون وديسال اللذان ارتادا مصر في العقد الثالث من القرن الماضي

﴿ التجارة ﴾ ولقد كانت سورية منذ عصور غابرة منفذاً من المنافذ الكبرى لتصريف تجارة اسيا الوسطى والهند وجانبٍ كبير من العراق والاناضول فصمغ ايران وراوند الصين وقرمز شمال العراق وارمينيا الصغرى وعنص الاناضول كانت ترسل كلها الى مصر وغيرها من بلدان البحر الابيض المتوسط عن طريق سورية. ولا تزال اسماء بعض الاقمشة الحريرية الى يومنا هذا تدلُّ دلالة كافية على ما كان لنا في العصور الوسطى وما لنا اليوم من الصلات باسيا الوسطى . فان حرير تفْتا وحرير ساتان المعروفين عندنا الآن أصلهما على الغالب من اسيا الوسطى. وكثير من الحجارة الكريمة التي كانت تباع في اسواق الشرق في ايام محمد علي وقبل ايامهِ كانت ترد كذلك من ايران واسيا الوسطى ولم تكن هذه السلع كبيرة الحجم فكان الحجاج ينقلونها معهم في ذهابهم الى الحج اذ كان يجتمع ألوف منهم في دمشق كل عام ومن هناك يسيرون معاً الى مكة والمدينة. وفي بعض الاعوام كانوا يقيمون شهراً او شهرين في سوريا فيساعدون بذلك على ترويج تجارتها وصناعاتها

رواجاً عظيماً وهكذا كانت سوريا تمدُّ مصر بما ينقصها من حاجاتها الاقتصادية وتقدم لمحمد علي كل ما يحتاج اليهِ

﴿ رياح الخمسين ﴾ يضاف الى هذا كلهِ ان احوالاً طبيعية وجغرافية كانت تجعل سورية وقيليقية ضرورتين جدًّا لوالي مصر فان ريح الخمسين التي تهب برملها على وادي النيل اتلفت ما كان محمد علي باشا قد استوردهُ حديثاً من اوربا من الآلات ذات الاجزاء الدقيقة. كذلك اضرت الارض الرملية الواقعة على حافة الصحراء بما كان عندهُ من قطعان غنم المرينو و بصوفها الناعم النفيس لان مراعي هذه الاغنام كانت إما في مراعٍ رملية واما في مراع رطبة وغير صحية أما الاراضي الجيدة التربة فقد كان يصعب تحويلها الى مراع للماشية لغلاء ثمنها ووفرة ريعها من الحاصلات الاخرى المتنوعة وفوق ذلك فان هذه القطعان لم تكن تجد في صيف كل سنة ما تتفيأهُ من ظلال اشجار الاقليم الذي ألفتهُ وكانت لا تجد حظائر تبيت فيها في الشتاء

أما في سوريا فالاحوال الطبيعية كانت تختلف عن ذلك كثيراً اذ لم يكن فيها اذ ذاك سيارات فورد او سواها تملأ جوها غباراً . ثم ان هواء لبنان وامانوس يضارع في صفائهِ ونقاوتهِ هواء اي صقع من اصقاع اوربا . وفي جبالها كل ما كان محمد علي في حاجة اليهِ من المعادن ومناجم الفحم اللازمة لمصانعهِ وكان بعض من بقاع سوريا يصلح لتربية اغنام المرينو كما يصلح لها شمال ايطاليا وهو وطنها الاصلي فاقليم سوريا ومراعيها كانت تصلح جدًّا لهذه الغاية

﴿ الحدود الجغرافية ﴾ زد على هذا ان حكام مصر من اقدم العصور كانوا يجدون مشقة عظيمة في السيطرة على حدود صحراء سيناء . وفي ايام الاحتلال الفرنسوي كان البدو يتجرون في المهمات الحربية المهرّبة بين مصر وسوريا فتعذر على الفرنسويين منع هذه التجارة بسبب طبيعة البلاد ولم تتغير هذه الحالة على الاطلاق في مدة حكم محمد علي حتى جاء وقت كان البدو فيهِ اشد ازعاجاً لهُ مما كانوا على عهد الاحتلال الفرنسوي فسلبوا في سنة ١٨١٢ قافلة خاصة بهِ بينما كانت سائرة من السويس الى القاهرة وفرّوا بغنيمتهم من الجمال والسلع ولما حاول محمد علي ان يقتصَّ منهم لجأوا الى حدود سورية . وهكذا نجا ايضاً بعض رعايا محمد علي نفسهِ وكثيرون من اعدائهِ وما حادثة فرار ١٠٠٠٠ او ١٢٠٠٠ من الفلاحين الى تخوم سورية في سنة ١٨٢٩ والتجاؤهم

الى حدود عكا الاّ واحدة من حوادث كثيرة من هذا القبيل ولم تكن تلك الحادثة وحدها علة حرب سنة ١٨٣١ بل كانت احدى عللها الحقيقية وهكذا لم يجد محمد علي بدًّا من ضمّ جنوب سوريا الى مصر صونًا للنظام وتوطيداً للامن في مصر

* السياسة والحزب المعارض * وعلاوة على هذا كان محمد علي يحسّ ان في القاهرة عاصمة ولايتهِ حزبًا قويًّا معارضًا لحكمهِ وكان يعرف جيداً ان الفلاح لا يميل الى اسلوبهِ النظامي الجديد في الحكم حتى ان نفراً من المصريين كانوا يمقتون اصلاحاتهِ الزراعية وكانت اشد عناصر السكان تعصباً غير محبذة لبعض اصلاحاتهِ الاجتماعية بل انهُ كان على بينة من انّ لهُ اعداءً من ذوي النفوذ ينفرون منهُ بسبب سياستهِ في السنوات العشرين الاخيرة ويتحينون الفرص لشقّ عصا طاعتهِ ولهذا كلهِ اشتدت رغبتهُ في محاربة السلطان محمود حرب الحياة والموت بعيداً عن مصر وعن حزبها المعارض وفي بلاد غريبة كسورية ليكون اكثر اطمئناناً الى السكان الوطنيين في ميدان الحرب

***

ولكن ليس هذا كل ما دفع بهِ الى اختيار سوريا ميداناً للحرب بل ان سورية وقيليقيه وهما بلادان جبليتان كانتا من اصلح الحدود التي تحيط بممتلكاتهِ الافريقية فقد كانت مساحة مقاطعة ادنه قبل الحرب ٥٢ ٠٠٠ ٠٠٠ دونم منها ٢١ ٠٠٠ ٠٠٠ اراضٍ جبلية و ٩ ٠٠٠ ٠٠٠ بطائح ومستنقعات و ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ فقط اراضٍ لا تصلح لاغراض الدفاع في الحرب ومثلها كانت سوريا بجبالها الشاهقة واوديتها العميقة وشعابها الضيقة — هذه وتلك كانتا حاجزاً طبيعيًّا دون تقدم جيوش السلطان محمود جنوبًا اذ لم تكن فيهما طرق صالحة لسير الجيوش فكانت خطراً على كل جيش معادٍ

وكان على الجيش التركي الذي يريد غزو سورية المصرية ان يجتاز ايضاً جبال طوروس من طريق واحد او من طريقين وهذا امر كان يعوق تقدمهُ كثيراً وكان عليهِ ان ينقل كل مهماتهِ ومؤنهِ في طريق وعر فاذا أُكره على التراجع استهدف لخطر كارثة تحل بهِ في ارتدادهِ على عقبيهِ لاجتياز جبال طوروس ثانية

أما محمد علي باشا فكان لهُ وراء هذا الخط الاول من خطوط الدفاع خط ثانٍ في لبنان حيث كان في وسعهِ ان يعتمد على تأييد الامير بشير الشهابي الكبير وحزبهِ .

كذلك كان لهُ خط ثالث في جبل الكرمل وخط رابع هو خط هيأتهُ الطبيعة خصيصاً في صحراء سيناء

كان جانب عظيم من ساحل سوريا قاحلاً مجدباً وكانت فيهِ صخور قليلة هنا وهناك ولكنهُ كان في معظم امتدادهِ مستقيماً اجزاؤهُ المتعرجة قريبة الى منحدرات الجبال المجاورة لهُ بحيث كان من الميسور اتخاذها حصوناً لهُ فباستيلاء محمد علي على سوريا حمي جناحهُ من الاستهداف لهجمات اسطول السلطان

وقد كان جميع المغيرين على سوريا يتجنبون غالباً انزال جنودهم الى البر قبل ان تصبح البلاد الواقعه وراء الساحل في قبضتهم فتحوتمس وستي ورمسيس والاسكندر ونابوليون اغاروا على سوريا من طريق البر غير ان ساحلاً كساحل سورية كان على الضد من ذلك ذا فائدة حقيقية لمحمد علي في حربهِ مع السلطان محمود اذ استطاع بما كان لهُ من القواعد البحرية في كريت والاسكندرونة وعكا ان يدافع عن مصر بحراً

وكانت سوريا ايضاً طريقاً عاماً بين آسيا وافريقية وقنطرة عظيمة تصل املاك محمد علي باملاك السلطان محمود ولهذا السبب كان ينبغي ان تكون السيطرة عليها لوالي مصر

وان من ينعم النظر في ما ابداهُ محمد علي من الهمة في تشييد المباني في سورية بين سنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٠ يغلب ان يؤيد صحة تعليلنا هذا للبواعث التي دفعت بهِ الى فتح سوريا فانهُ حصَّن شعاب طوروس وجدد بناء حصون عكا ورسم طريقاً حربياً كبيراً بين شمال سوريا ومصر وشرع في تحويل الاسكندرونة الى قاعدة بحرية ثم ان ما كان من شدة تصميم ابراهيم باشا على اخذ ادنه من السلطان علاوة على سوريا لا يفهم الاَّ على الوجه الذي عللنا بهِ بواعث ابيهِ

وقصارى القول ان سورية ومصر كانتا منذ مائة سنة تؤلفان وحدة اقتصادية وبمعنًى ما وحدة جغرافية طبيعية وقد اعترف محمد علي بهذه الحقيقة منذ اوائل عهد ولايتهِ ورغب بحربهِ مع الباب العالي في ان يجعل البلادين وحدة سياسية ايضاً آه

جامعة بيروت الاميركية الدكتور اسد رستم